

## التعايش بين الأديان في الأندلس من خلال نصوص شعرية أندلسية

د. عبد العزيز شهبر

كلية الآداب - تطوان - المغرب

لَقَدْ صَارَ قَلْبِي قَابِلًا كُلِّ صُورَةٍ      فَمَرَعَى لِعِزْلَانٍ وَدَيْرٍ لِرُهْبَانٍ  
وَبَيِّنَتْ لَأَوْثَانٍ وَكَعْبَةٌ طَائِفٍ      وَأَلْوَا حُ تَوْرَةٍ وَمُصْحَفُ قُرْآنٍ  
أَدِينُ بِدِينِ الْحُبِّ أَنِّي تَوَجَّهْتُ      رَكَابُهُ، فَالْحُبُّ دِينِي وَإِيمَانِي  
ابن عربي المراسي

لماذا البحث في التعايش بين الأديان ؟ وكيف نفهم التعايش ؟ وهل تحقق هذا التعايش في الأندلس الإسلامية ؟ وهل تعكسه نصوص الأدب الأندلسي ؟

هذه عينات من بين أسئلة عديدة يمكن أن تطرح حول هذا الموضوع، قد تكون حظيت بأجوبة بعضهم، لكن أي جواب لا يمنع من طرحها ثانية، والتماس أجوبة جديدة لها قد تصير بدورها محل تساؤلات جديدة.

ولقد كنت أتساءل - طيلة فترة دراستي بقسم الدراسات العبرانية والأرمية بجامعة مدريد - عن سبب تنامي طرح موضوع لقاء الثقافات الثلاث في الأندلس، وكنت أتابع بنهم شديد موضوع اللقاء المسيحي - الإسلامي في قرطبة ومدريد، واللقاء الإسلامي - القطلاني ببرشلونة، ولقاء الثقافات الثلاث بطليطلة، وكنت أداوم على قراءة أعداد مجلة «دراسات إسلامية - مسيحية» التي يصدرها المعهد البابوي للدراسات العربية والإسلامية بروما، كما كنت أحرص على حضور تلك الندوات التي كانت تعقد حول أعلام الملل الثلاث ومفكراتها في الجامعات

الإسبانية. وكنت أفسّر كل تلك الأنشطة واللقاءات بالوعي العام الذي أصبح يسود العالم، والذي يرى ضرورة رجوع الدين إلى الواجهة لتجاوز أزمة الحداثة، وكنت أعجب بأبناء الملل الثلاث كيف يتناقسون في البحث في الماضي تاريخا وتراثا من أجل العثور على نماذج للقاءات، موسومة بالتعايش، يمكن أن تقنع الجميع بإمكانية إعادة التجربة، ولتتخذ منطلقا يتمّ من خلاله تحقيق حوار بين الأديان يكون في خدمة السلام<sup>(1)</sup>. وقُدِّمت الأندلس في أغلب الأعمال نموذجاً لهذا اللقاء والتعايش<sup>(2)</sup>. وجاءت سنة 1992 لتؤكد شيئا من التفسير لما كنت أقدمه سابقا من تساؤلات، فكانت إسبانيا محطة الجولة الأولى من مؤتمر السلام، وكانت إشبيلية كعبة لقاء عالمي، وكانت برشلونة مكان لقاء أهل الأديان في المجمع الإبراهيمي. إنها حقاً انطلاقة جديدة لأبناء إبراهيم من أجل استرداد العالم بعبارته كيبيل Gilles Kepel<sup>(3)</sup>.

### ولكن كيف نفهم التعايش بين الأديان ؟

إن مصطلح التعايش يعني الاعتراف بالآخر المخالف في الرأي والمبدأ، وإمكانية الإقامة معه في مجتمع واحد، ومدّ العلاقات معه، والإقرار له بحريته العقائدية والمذهبية. وهذا المصطلح غالبا ما تلحق به مصطلحات أخرى مثل : اللقاء، الحوار، التسامح، التلاقح، فنقرنُ التعايش باللقاء والتسامح، ويكون الحوار والتلاقح ثمرة لذلك التعايش. فنقول على سبيل المثال : إنه تحقّق في الأندلس تعايش وتسامح بين أتباع الملل الثلاث، ونقول : إن الأندلس كانت مكانا تحقّق فيه تلاقح بين الثقافات، وحوار بين الأديان .

وقبول هذه المصطلحات يبقى متفاوتا ونسبيا بتعدّد انتماءات مستعمليها العقائدية. فقد يرفض بعضهم مصطلح التلاقح بين الأديان لأنّ «التلاقح» هو تبادل اللقاح، وتلاقح الأديان يعني بالضرورة أنّ أحدها أخذ من الدين الآخر لقحة لا يستبين اللقاح إلا بها. فتلاقح الأديان في

(1) بخصوص هذا الحوار انظر :

Cardinal Francis Arinze: Interreligious dialogue at the service of the peace, Islamo-Christianity, 13,1987 pp : 1-8

(2) انظر أعمال :

I Congresso Internacional Encuentro de las tres culturas, Toledo. 1982.

(3) Gilles Kepel: la revanche de Dieu , chrétiens, juifs et musulmans à la reconquête du monde. Paris 1991.

الأندلس، يعني أنها تبادلَت اللّقاءَ بينها إلى حدّ أنه بإمكاننا الحديث عن إسلام أندلسي به لقاءات مسيحية ويهوديّة، وعن مسيحيّة أندلسيّة بها لقاءات إسلاميّة ويهوديّة، وعن يهوديّة أندلسيّة بها لقاءات إسلاميّة ومسيحيّة. وهذه الأمور يرفضها أهل هذه الأديان.

لكن مصطلح التّلاقح يبقى واردا في مجالات أخرى، فنقول مثلا : إنّ شعراء العبرانية في الأندلس طوّعوا العروض العربي واستعملوه في إنشاء شعر عبراني أندلسي على نمط شعر العربيّة. فالعروض كان لقاءا استبان به الشّعْر العبراني الأندلسي، وطريقة غناء النّصاري لقّحت طريقة غناء العرب في الأندلس، فكان أن ظهرت طريقة أهل الأندلس في الغناء كما يقول التّيفاشي في ممتع الأسماع، فطريقة غناء الأندلس استبانَت بفعل التّلاقح الذي حدث مع طريقة غناء النّصاري بها. والتّلاقح بين الثقافات ممكن، وهو يعني تحقيق نوع من التّعاشيش بينها إلى درجة تبادل اللّقاءات، على أن لا تُخلّ هذه اللقاءات بهويّتها.

أما مصطلح «اللّقاء»، «اللّقاء» بين الحضارات والأديان فهو ممكن لأنّ الحضارات مهما تعدّدت فهي في الأصل واحدة، إنّها حضارة إنسانيّة في النّهاية وليست هناك حضارة خالصة معزولة عن الحضارات الأخرى. وكل واحدة منها تأخذ عن الأخرى، ولا يمكن أن تُسمّى حضارة إلا عند لقائنها بالحضارات الأخرى، واللّقاء بين الأديان ممكن بإمكان حدوث اللّقاء بين المعتقدين بها. وهذا اللّقاء لا يمسّ جوهر تلك الأديان. فالمسلم بلقائه للمسيحي لا يمكن أن يعترف بالتّثليث والصّلب، وإن كان يؤمن بعيسى رسولا، واليهودي والمسيحي بلقائهما بالمسلم، لا يمكنهما الإقرار لمحمد خاتما للرّسل والأنبياء. ولكن ذلك اللّقاء يمكن أن يُسهّم في تكوين مجتمع إنساني عادل، فيه إيمان باللّه وبشرائعه، علما بأن الشّرائع تهدف كلها بالأساس إلى حفظ النفس والعرض والمال.

أما مصطلح الحوار : «الحوار بين الأديان» فهو ممكن إذا فهمنا منه المناظرة بينها. ويكون علينا أن نبحث عن أسلوب جديد للمناظرة حتى لا نسقط في الصّدّام الذي وقعت فيه المناظرات السابقة بين الأديان، كالمناظرة التي وقعت في القرن 7 / 13 بين أبي علي الحسين بن رشيق وراهب وصّفه هذا الأخير بأنه فصيح اللّسان، مدرِك للكلّام، مُعتدِّل في المناظرة، ومثل مناظرة أبي عبد الله الكاتب لقريلية إسبانيا، ومناظرة الشّهاب الحاجري لقساوسة إسبانيا وبلاد الفلاندا.<sup>(4)</sup>

(4) المناظرة الأولى واردة في المعيار للنوشرسي ج 11 - ص 155 - 158 ومناظرات الحاجري متضمّنة في كتابه ناصر الدين على القرم الكافرين تحقيق د، محمد رزوق نشر كلية الآداب، الدار البيضاء سنة 1987. وعن مناظرة عبد الله الكاتب انظر مخطوط رقم 4944 المكتبة الوطنية بمغريد.

لكن إذا فهمنا من الحوار، الجلوس إلى مائدة واحدة للاتفاق على صيغة موحدة للدين بترك الخلاف، والعمل بما اتفق عليه، يكون هذا الحوار مدفوعا، وأشير إلى أن الدعوة إلى هذا النوع من الحوار قديمة، فابن الطواح يتحدث في سبك المقال، عن رسالة وجهها المتصوّف الحرالي إلى أسقف طركونه يدعو فيها إلى وجوب التصافي بين أبناء الملل الثلاث. كما أن أسقف طليطلة إلبندو Elipando حكم سنة 138 / 785 على رجل بإشبيلية، لأنه قال: بأن المسيح إلهي فقط في طبيعته ولكنه إنساني بالتبني<sup>(5)</sup>.

وتخلص في النهاية إلى أن التعايش هو الاعتراف بالآخر المخالف في الرأي والمبدأ، والإقرار له بحريته الدينية والمذهبية. فهل تحقق تعايش بهذا المعنى في الأندلس؟ وهل اعترف المسيحي بحرية المسلم واليهودي في الاعتقاد بغير المسيحية؟ وهل اعترف اليهودي بحرية المسلم والمسيحي في الاعتقاد بغير اليهودية؟ وهل اعترف المسلم بحرية اليهودي والمسيحي في الاعتقاد بغير الإسلام؟ الحق أن الثلاثة كانوا يؤمنون بإيماناً راسخاً بامتلاك الحقيقة المطلقة. فلا المسيحي تجاوز تقديس لاهوته، ولا اليهودي تجاوز تقديس أسفاره وتقسيم البشر إلى يهود وغوييم، ولا المسلم تجاوز مسألة تحريف التوراة والإنجيل، إلى محاوره هؤلاء حوار بناء لا خلق صدام وانكفاء على الذات.

ولقد كان اللقاء بين الأديان الثلاثة في الأندلس لقاء تصادم وصراع، شكّل المسلمون والمسيحيون أقطابه الأساسية، ولعب فيه اليهود دور المرحّج. كما أن ظروف اللقاء تعددت: فلقاء اليهود والمسيحيين في منطقة نفوذ الدولة الإسلامية، مخالف للقاء هؤلاء الثلاثة في الأراضي التي شملها «الاسترداد». وأراني أبقى على هذا المصطلح كما هو لكونه يعكس ما نحن بصدده. كما أن اللقاء بين المذكورين مغايران للقاء الذي تم بين اليهود والمسيحيين قبل الفتح الإسلامي وبعد سقوط الدولة الإسلامية بالأندلس.

فقبل الفتح، وللحيلولة دون تأثير الطوائف اليهودية في المجتمع المسيحي، عُقد مجمع ألبييرة Concilio de Elibens، وكان من نتائجه فصل المسيحيين عن اليهود، ومنعهم من إقامة علاقة قرابة معهم، وتحريم مشاركتهم لهم في طقوس مباركة ثمار الأرض<sup>(6)</sup>. بينما منع مجمع طليطلة الثالث إقامة علاقات عائلية مع اليهود حرصاً على العقيدة المسيحية، وركز مجمع

Jaime Corral: la Tolerancia 'arabe en Al-andalus, Tigris, N. 22, Septiembre (5) Madrid, p: 51 1981

Garcia Iglesias: los judios en la Espana Antigua, p : 69 ss, 1988

(6) انظر:

طليطلة الرابع على وجوب فصل أبناء اليهود عن عقيدتهم، وقضى بتعميم تنصير يهود إسبانيا. ولعلّ المواقف ممّا ألفه سان إزيدورو San Isidoro في الرد على اليهود يستخلص منها روح التعصّب وعدم الإيمان بالاختلاف الذي ساد المجتمع المسيحي الإسباني قبل الفتح. وهو الأمر الذي سيكرر عند سقوط غرناطة سنة 1492 / 897 وإعلان طرد المسلمين واليهود من إسبانيا، كما سيكرر في بلاد الأندلس التي سيّشملها الاسترداد قبل 1492 / 897 بزمان، وبالأخص طليطلة ألفونسو السادس، وبلنسية السيد رودريغو ديث<sup>(7)</sup>.

ومُكوّث المسلمين في طليطلة بعد سقوطها سنة 1085 / 478 م، لا يقوم دليلا على التعايش البتّة. ويحقّ لنا أن نسمة بـ «التعايش الاستراتيجي» فالأذفونش كان يعلم أن سكّان طليطلية وأغلبهم مسلمون يصعب تعويضهم، كما كان يعي أن المبادرة بمعاداة المسلمين يمكن أن تُلجئ ملوك الطوائف إلى «مُدَاخَلَة» سواه. ولعلّ هذا هو ما يفسّر انصياعه لرأى سيسنا ندر دافيديث Sisnando Davidez<sup>(8)</sup>

لقد كانت إذن، مسألة ظرفية، لم تتوقّف خلالها خطة التّنصير، هكذا حبّب سيسنانودو التّنصّر إلى طغّام أهل طليطلة من المسلمين، بينما هبّ الأذفونش إلى تحويل مسجد طليطلة إلى كنيسة، وهذا الأمر الأخير، مثال واضح عن عدم تحقّق التعايش في طليطلة بالمعنى الذي حدّدناه سابقا. ونفس الصورة ستكرر عند سقوط غرناطة. جاء في نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر لمؤلف مجهول: «فلما رأى ملك الرّوم أنّ الناس قد تركوا الجواز، وعزموا على الدّجن والاستيطان والمقام في الأوطان أخذ في نقض الشّروط التي اشترطوها عليه أول مرة، ولم يزل ينتقضها شرطا شرطا ويحلّلها فصلا فصلا إلى أن نقض جميعها ... ثم دعاهم إلى التّنصير وأكرهم عليه وذلك سنة أربع وتسعمائة، فدخلوا في دينه كرها، وصارت الأندلس كلّها نصرانية، ولم يبق من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله جهرا ... وجُعِلَتِ النّواقيس في صوامعها بعد الأذان وفي مساجدها الصور والصّليان، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن، فكّم فيها من عين باكية، وكّم فيها من قلب حزين، وكّم فيها من الضّعفاء المعدومين ... قلوبهم تشتعل، ودموعهم تسيل سيلًا غزيرا مدرارا، وينظرون أولادهم وبناتهم لا يقدرّون على منعهم ولا على نهيمهم ...»<sup>(9)</sup>

(7) انظر: مقال أستاذنا د. امحمد بن عبّود «الموريسكيون في نهاية عهد دول الطوائف من خلال النصوص التاريخية الأندلسية» ضمن مباحث في التاريخ الأندلسي ومصادره ص: 57 - 77 منشورات عكاظ: الرّباط 1987.

(8) انظر: الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الرابع ج 1، ص: 167 - 168

(9) نبذة العصر، تحقيق ألفريد البستاني، ص: 11-45، العرائش 1940.

وخضع اليهود لنفس التضييق والملاحقة على عهد الملكين الكاثوليكين، وإن كانوا حظوا ببعض العناية من طرف بعض ملوك قشتالة في الأراضي التي شملها الاسترداد مُبكرًا. فقد ضمّ بلاط ألفونسو العاشر يهودا نذكر منهم على سبيل المثال : سليمان بن صدوق، ومير بن شوشان، ودون ثاغ دي لاملوحة .. ول بعضهم فيه مدائح تدل على ماحظوا به في عهده من منزلة. ونذكر مثالا لها، قصيدة طودوروس بن يهودا اللّوي أبي العافية.<sup>(10)</sup>

لكن تلك العناية سرعان ما تلاشت بفعل اشتداد التعصب الديني عند ملوك قشتالة، وسوف يعاني يهود إسبانيا المسيحية الكثير من أحداث برشلونة 662 / 1263 وطرطوشة 816 / 1413 - 817 / 1414، والأحداث التي تلت الطاعون الأسود 749 / 1348 ومذابح 794 / 1391. وساهمت الأحداث التي واكبت عبور الموحدين إلى الأندلس<sup>(11)</sup> في انتقال اليهودية الأندلسية من العالم الإسلامي إلى أوروبا المسيحية، حيث استمرت محتفظة بولاتها لطوائف الأندلس وللإرث الثقافي الأندلسي.<sup>(12)</sup>

هذا عن اللقاء بين أهل الأديان الثلاثة قبل الفتح وفي الأراضي التي استردها إسبانيا قبل سقوط غرناطة، فهل حصل تعايش في الأندلس الإسلامية ؟

(10) انظر ترجمته عند :

Angel Saenz Badillos: Judith Taragorona Borrás, Diccionario de autores judi-sefarad (siglos X-XV). p : 115-116, Ed, Almendro, Cordaba 1988. os de

وانظر : Aviva Doron, Todoros Abulafia Poet in christian Spain, 1988

Judith Taragorona, Helmantica وانظر ترجمة قصيدة طودوروس في ألفونسو 36,1985,PP:195-210,y Angle Saenz Badillos, Literatura Hebraico en la España Medieval, : 203- 204, Madrid 1991

قارن بين قصيدته وما رواه ابن سعيد للشاعر أبي إسحاق بن الفخار في الأذفونس الثامن، المغرب ج 2 ص 23 :

(11) درج الدارسون على رسم الموحدين بالتعصب، ونسبوا إليهم ملاحقة أهل الملل الأخرى وسندهم في ذلك قصيدة لإبراهيم بن عزرا ونصوصا أخرى. انظر :

Solomo Donvergo: Sebet Yehuda, ed. Ber , Jerusalem 1947, p : 21 -22 ; Gerard Nahon, la elegia de Abraham Ibn Ezra: sobre la persecucion de los Almahades, nuevas perspectivas "actas del simposium internacional sobre Abraham, Madrid ham Ibn Esra. P : 217 - 224 1990.

(12) بخصوص هذا الانتقال انظر :

Septinus B: hispano-Jewish cultre in transition, the career and contro-versies of hamah, p : 1 Cambridge (Man) 1981

تروي المصادر أن أهل الذمة في الأندلس كان «يرأسهم أشياخ من أهل دينهم أولو حنكة ودهاء ومُدَاراة» (13). وتحكي أن «قرع النواقيس يُبهِجُ أهل قرطبة» (14) وأنه كان لأمرء الأندلس وخلفائها وملوكها وزراء وسفراء ورؤساء دواوين وأطبّاء من أهل الذمة.

وهذه الأمور وإن عبرت عن معاملة متميزة، فإنّها ليست تعنى التّعاش الذي حدّدناه آنفاً، والذي هو الاعتراف بالآخر المخالف في الرأي والمبدأ، والإقرار له بحريته الدّينية والمذهبية. حقاً إن قانون الذمّة ضمن لأهل الكتاب حقّ تسيير طوائفهم وتدبير شؤونهم بأنفسهم، وحمل ولاية الأمور من المسلمين على توفير الحماية لهم (15). ولكن هذا القانون طُبّق بأشكال متعدّدة، وقُسّر بوجوه مختلفة (16)، وتمّ تجاوزه مرات عديدة فاستعمل أهل الكتاب كُتّاباً للخراج والديوان، وقائمون بأمور الحساب والمساحة، وهو أمرٌ عدّه بعض الفقهاء شائناً.

ونجد ابن مرزوق التلمساني يعدّ من فضائل أبي الحسن المروني «أنه لم يستعمل أحداً من أهل الذمة في هذه الخطّة، كما استعملهم غيره»، ويقول: «إنّ هذا الأمر عهدٌ بالمغرب والأندلس، فهو لم يتخذهم أطباء كما فعله غيره ولا خزنة أموال كما تقدّم لغيره» (17).

وأورد ابن مرزوق قصيدة أبي إسحاق الإلبيري في التحريض على قتل يوسف بن النغرالة والتي سنقف عليها لاحقاً (18).

وأدّت الامتيازات المتعدّدة التي نعم بها أهل الذمة إلى توسيع الهوة بينهم وبين المسلمين الذين أصبحوا يتحينون الفرص للانتقام، وثورة أهل غرناطة على ابن النغرالة تقوم مثالا على ذلك. فما أن بلغت قصيدة أبي إسحاق صنهاجة حتى ثاروا عليهم فقتلوه، وكانوا ألف رجل وتسعمائة وإحدى وخمسين امرأة. وقال السالمي: «بلغ القتلى من اليهود نيفا على أربعة آلاف

(13) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، المجلد الأول، ص: 107 القاهرة 1973.

(14) أبو نصر الفتح بن خاقان، مطمح الأنفس ص: 21، القاهرة 1352 هـ.

(15) انظر: Lewis B: The Jews of islam, p: 14 - 16, 1987.

وانظر كذلك،

Stillman N: the Jewe of Arab Lands a history and source Book, pp: 53-55 1979

(16) انظر أحمد الطاهري، عامة قرطبة في عصر الخلافة، ص: 150، سلسلة المعتمد بن عباد للتأريخ الأندلسي ومصادره (2)، منشورات عكاظ، الرباط 1988.

(17) المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا الحسن، دراسة وتحقيق، ماريّا خسوس فيغيرا، ص 378، الجزائر 1981.

(18) بخصوص تجاوز قانون الذمّة، انظر ما أورده النشرسي في المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب ط، فاس 1315 هـ ج 2 ص: 198 - 199

وقُتِلَ من خالطهم من المسلمين ...» (19)

إلى هنا نكون قد حدّدنا مفهوم التّعایش. فهل عكس الأدب الأندلسي ذلك التّعایش ؟  
إنّنا نعلم منذ البداية أنّ الأعمال الأدبية تعكس الحقيقة الأصيلّة (20)، ونعلم أنّها تعكس رؤية  
مؤلفها، لكنّنا لن نعدّ إلى استنتاج ما سنعرّضه من عينات أكثر مما تطيق لنقرّر أمراً أو لننفي  
آخر، ولن نتقيّد بإيرادها حسب التسلسل الزمني لأصحابها. وما يهّمنا الآن هو معرفة هل تعكس  
تلك العينات تعایشاً.

### ابن الحداد الأندلسي ونوبة المسيحية :

كلّ من استشرتهم أثناء اختياري لمادّة هذا البحث، كانوا يُشيرون علىّ بالرجوع إلى  
ديوان أبي عبد الله محمد المعروف بابن الحداد النميري الوادي آشي (21) المتوفي سنة 480 /  
1087 والمشتهر بغزليّاته في المسيحيّة نورية. يقول ابن بسام : « وكان أبو عبد الله قد مُني في  
صباه بصبيّة نصرانية ذهبت بلبّه وركب إليها أصعب مركب، فصرف إليها وجهه رضاه، وحكّمها في  
رأيه وهواه، وكان يسمّيها نورية كما فعله الشعراء الظرفاء قديماً في الكناية عمّن أحبّوه وتغيّر  
اسم من علقوه » (22). ويقول جامع شعره ومُحقّق ديوانه : استطاع (ابن الحداد) أن يُضفي الغزل  
على ذلك الجوّ النصراني السّمج بأسلوب قصصي رائع تمتع جميل، فحفل شعره بذكر كل ما له  
علاقة بالجوّ المسيحي كالتّثليث، والإنجيل، وعيسى المسيح، والقّس، والصّليان، والرهبان،  
والنسّاك، والكنائس ... » (23). غير أن ولع ابن الحداد بالنصرانية نورية ووصفه للفضاءات  
المسيحية واستعماله لمعجم دال على الجوّ المسيحي، أمور عادية وطبيعية لا يمكن أن نتّخذها  
دليلاً على التّعایش، كما لا يجب تعميمها على المجتمع الأندلسي. وهي ليست من قبيل الخاص  
الذي يفيد التعميم. إنّها نتاج شعور إنساني لا يأخذ مرجعيّته من الأدیان. وابن الحداد نفسه  
يقرّر في أبيات، نقف عندها فيما بعد، بأنّ وصفه للكنائس وحضوره الأعياد المسيحيّة ليس نابعا

(19) مسند ابن مرزوق ص : 381

(20) انظر : Pierra Zima: pour une sociologie du texte littéraire Paris 1978

(21) ديوان ابن الحداد الأندلسي، جمع وتحقيق وشرح وتقديم د، يوسف علي طويل، دار الكتب العلميّة،  
بيروت 1990

(22) الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسّام، القسم الأول، المجلد الثّاني ص : 168 تحقيق د، إحسان  
عبّاس، دار الثقافة بيروت 1978 - 1979

(23) الديوان، ص : 37.



من ولعه بالمسيحية، لقد كان يروم تلك المسائل للنفاذ إلى فؤاد نورية المتسكة بدينها، لكن لما تمّنت وبالغت في الصّدود صرّح بتذمّره.

يقول ابن الحداد (المنسرح) (24) :

- 1- قلبي في ذات الأثنيات
  - 2- فزجها نحوهم إنهم
  - 3- وعرساً في عقدات الكوى
  - 4- وعرجاً بي يا فتى عامر
  - 5- فإن بي للروم رومية
  - 6- أهيم فيها والهوى ضلّة
  - 7- وفي طباء البدو من يزدرى
  - 8- أفصح وجدي يوم فصّح لهم
  - 9- وقد أتوا منه إلى موعد
  - 10- بموقف بين يدي أسقف
  - 11- وكلّ قسّ مظهر للتقى
  - 12- وعينه تسرح في عينهم
  - 13- وأي مرءٍ سالم من هوى
  - 14- فمن خدود قمرات
  - 15- وقد تلوأ صُخف أناجيلهم
  - 16- يزيد في نفر يعافيرهم
  - 17- والشمس شمس الحسن من بينهم
  - 18- وناظري مختلس لمحها
  - 19- وفي الحشا نار نويرة
  - 20- لا تنطفي وقتاً وكم رمثها
  - 21- فحيّ عني رشاً المنحنى
- رهين لوعات وروعات  
وإن بغوا قبله بُغياتي  
بالهضبات الزهريات  
بالتفتيات العيسويات  
تكس ما بين الكنيسات  
بين صواميع ويّعات  
بالظبيات الحضرات  
بين الأريطى والدويحات  
واجتمعوا فيه لميقات  
ممسك مصباح ومنساة  
بأي إنصات وإخبات  
كالذئب يبغي فرس نعجات  
وقد رأى تلك الظبيات ؟  
على قدود غصنيّات  
بخسّن ألحان وأصوات  
عني وفي ضغط صباباتي  
تحت غمامات اللثامات  
ولمحها يُضرم لوعاتِي  
علقتها منذ سنيّات  
بل تلتظي في كلّ أوقاتي  
وإن أبى رجّع تحياتي

أول ما يستوقفنا في هذه القصيدة، استعمال ابن الحداد لألفاظ تمتح من فضاء مسيحي : عيسويات، الكنائس، الصوامع، بيعات، الفصح، واستعمال هذا المعجم لا يعني تعايشاً بقدر ما يدلّ على رغبة الشاعر في التمكن من إقناع نويرته، إننا نجدد يلمس من فتيين من آل عامر التوجّه معه إلى حيث الفتيات المعتقدات بدين عيسى المسيح، ويعلن في البيت الثاني من القصيدة أنّه ظلّ مرفوضاً من طرف أهل نويرة. ونويرة نفسها ظلّت تتشاكل وتواجهه بالصدود، ولعل السبب في كلّ ذلك راجع إلى تلك النفرة الطبيعية الواقعة بين المسلمين وأهل الذمة، والتي مردّها الخلاف في مسائل جوهرية، وكان مما أذكى تلك النفرة الصّراع الكبير الذي اشتد بين الممالك النصرانية والدولة الإسلامية في الأندلس. وحُبّ ابن الحداد لنويرة جعله يتابع أعياد المسيحيين وإن كان لا يشارك فيها إلا من بعيد (البيت 8). لقد كانت تلك الأعياد فرصة للقائه بنويرته، ولم يكن الباعث على حضوره إيمانه بالآخر واعترافه به.

وفي وصفه للأسقف شيء من الاستخفاف، فهو عنده «مظهر للتقى»، يصطنع الخشوع والخضوع، وهو كالذئب يروم افتراس النعجات. ويلتمس ابن الحداد له المَعذرة، فمهما كان الإنسان ناسكاً صالحاً لا يقوى على تجنب السقوط في شرك غرام نويرة، كما لا يستطيع الصمود أمام محاسن النساء العيسويات ويقول ابن الحداد في قصيدة أخرى (الطويل)<sup>(25)</sup>

- |                                 |                              |
|---------------------------------|------------------------------|
| 1- حديثك ما أحلى فزيدي وحدتي    | عن الرشا الفرد الجمال المثلث |
| 2- ولا تسأمي ذكره فالذكر مؤنسي  | وإن بعث الأشواق من كلّ مبعث  |
| 3- وبالله فارقي خبل نفسي بقوله  | وفي عقد وجدي بالإعادة فابعتي |
| 4- أحقاً وقد صرحت ما بي أنّه    | تبسم كاللاهي بنا المتعبث     |
| 5- وأقسم بالإنجيل أنني سابق     | وناهيك دمعي من محقّ مُحث     |
| 6- ولا بدّ من قصي على القس قصتي | عساه مغيث المدنف المستفوت    |
| 7- ولم يأتهم عيسى بدين قساوة    | فيقسو على بتي ويلهو بمكرث    |
| 8- وقلبي من حليّ التجلد عاطل    | هوى في غزال الوادين المرعث   |
| 9- سيصبح سرّي كالصباح مشهوراً   | ويمسي حديثي عُرْضة المتحدث   |
| 10- ويُغري بذكرى بين كأس وروضة  | ويشدو بشعري فوق مثني ومثلث   |

(25) نفسه، ص: 169 - 172

فهو في هذه القصيدة بالإضافة إلى استعمال معجم دال على الفضاء المسيحي، يستوقفنا استعمال ابن الحداد لصيغة الغائب حين حديثه عن أهل نورية. وهو ما لاحظناه في النص السابق كقوله « فوجّها نحوهم إنهم »، « وإن يغوا » (البيت الثاني)، « وقد أتوا » (البيت التاسع)، و« تلو » (البيت الخامس عشر). وهو ينحو نفس المنحى في هذا النص (انظر البيت السابع مثلاً). فهم بالنسبة إليه آخر مغاير له، ونورية فرد من هذا الآخر. ويحاول الشاعر تقليص هذه المغايرة باستغلال معجم من فضائها النصرائي، إلا أنها كانت تُصرّ على البقاء « آخر » بالنسبة إليه. وهو في هذا النص يتّوجّه إليها عن طريق إحدى صُوحيّاتها، ورغم ما يعمد إليه من إظهار وكّعه بها، تُقابله بالصدود والتكران (البيتان الرابع والخامس)، وتقسم بإنجيلها أنه كاذب، وهذا الأمر الأخير أوحى له بفكرة التوجّه إلى القس.

وَلَا بُدَّ مِنْ قَصِي عَلَى الْقِسِّ قِصَّتِي عَسَاهُ مُغِيثِ الْمُدْنَفِ الْمُتَغَوِّثِ

يقول محقق الديوان : « وهكذا إيماناً بدين نورية، فقد ارتأى أن يقصّ قصة حبّه على القس عساه يزوّجه بها، فينقذه من الموت المحتم ... » (26)

وأظن أن هذا البيت هو فقط توطئة لما سيتلوه، فقد استعمل ابن الحداد قياساً قصد من خلاله مراجعة صدود نورية، التي رغم تمسكها بدينها وحرصها على أداء شعائره، و حضور أعياد قومها تخالف شريعة عيسى. فعيسى لم يأت بدين قساوة، ولم يقس على مريض ولا « مكرث » كما تفعل نورية المثاقلة.

وَقَلْبِي مِنْ حَلِي التَّجْلِدِ عَاطِلُ هَوَى فِي غَزَالِ ذِي نِقَارٍ مُرْعِثُ

وابن الحداد يحسن أنه ضلّ عن الجادة بولعه بنورية العيسوية. فهو يصرح بأنه أخذ أسيراً من طرف نورية رغم السلم والهدنة الواقعين بين أهلها وأهله (الطويل) (27) :

1- وفي شرعة التثليث فرد محاسن تنزّل شرع الحبّ من طرفه وخيا

2- وأذهل نفسي في هوى عيسويّة بها ضلّت النفس الحنيفيّة الهديا

3- فمن لجفوني بالتماح نورية فتاة هي المردى لنفسي والمحيا

4- سبتني على عهد من السلم بيننا ولو أنها حربٌ لكنت هي السبيا

(26) نفسه، ص: 171 ، هامش رقم 7

(27) نفسه، ص: 306

إنَّ ابنَ الحداد لا يُؤمنُ بمسيحية نورية، لأنَّ مسيحيتها لا تؤمنُ بالحبِّ. وهي في ذلك تُخالفُ مسيحيةَ عيسى عليه السَّلام، التي أكَّدتُ الحبَّ ودعَّمته بالوحي، ولولا حُسنُ نورية لَمَّا ولَّعَ ابنُ الحداد بالصلبان والكنائس يقول : (الوافر)<sup>(28)</sup> :

نُورَةُ بي نُورَةُ لا سِوَاهَا      ولا شَكُّ فَقَدْ وَضَعَ اليَقِينُ  
ووجدَه وحزنَه إثنان من ثلاثة : الحسن، والوجد، والحزن (الطويل)<sup>(29)</sup> :

- 1- وبين المسيحيَّات لي سامريَّة      بعيدُ على الصبِّ الحنيفي أن تدنو
- 2- مثلثُ قد وَحدَ الله حُسنها      فثنِّي في قلبي بها الوجدُ والحزنُ
- 3- وطَيَّ الخمار الجونَ حُسنُ كأنما      تجمَّع فيه البذرُ واللبلُ والدُجنُ
- 4- وفي معقِدِ الزنار عقْدُ صبايتي      فمن تحته دِغصُ ومن فوقه غُصنُ
- 5- وفي ذلك الوادي رُشًا أضلعي له      كناسُ وقمرِي فؤادي له وكُنُ

وذكره للصلبان والرهبان وأعياد المسيحيين لم يكن من باب الاعتراف بهم، ولم يكن من باب الإيمان بحق الاختلاف. فوجده وجبه كانا مبعث ذكره نورية في شعره.

يقول ابن الحداد (مجزوء الوافر)<sup>(30)</sup>

عَسَاكَ بِحَقِّ عَيْسَاكَ	مَريحَة قلبي الشاكي
فإنَّ الحُسن قد ولَّأ	ك إحيائي وإهلاكي
وأولعني بصلبان	ورهبانٍ ونسَّاك
ولم آت الكنائس عن	هوى فيهنَّ لولاك
وها أنا منك في بلوى	ولا فرجٌ لبلواك
ولا أستطيع سلوانا	فقد أوثقتِ أشراكي
فكم أبكي عليك دُمًا	ولا ترثين للباكي
فهل تذرين ما تقضي	على عيني عيناك

(28) نفسه، ص: 264

(29) نفسه، ص: 256

(30) نفسه، ص: 241 - 242

وما يذكّيه من نارٍ      بقلبي نورك الذّاكي  
 حجبَتِ سنّاك عن بصري      وفوق الشمس سيمّاك  
 وفي الفصن الرطيب وفي      النقا المرتّج عطفّاك  
 وعند الروض خدّاك      ومن ربّاه ربّاك  
 نويرُهُ إن قليتِ فإنّ      تنّبي أهّواك أهّواك  
 وعينّاك المنبّهتّا      ك أنّي بعض قتلاك

فابن الحداد الأندلسي وإن كان أكثر من وصف الأجواء المسيحية الأندلسية، فإنّه لا يقوم مثالا على التّعاش بالمعنى الذي حصّره سابقا.

### ابن المنفّتل القرطبي مدّاح اليهودي ابن النغّالة :

نظم أبو عبد العزيز بن خيرة القرطبي جملة من قصائده في مدح اليهودي ابن النغّالة قائد جيوش بني زيري بغرناطة. ولعلّ مدح مسلم ليهودي في دار الإسلام يبدو غريبا. وقد يعدّ بعضهم ذلك، وجها من وجوه التّعاش بين أتباع الملتين، كما اعتبروا قصائد ابن الحداد عنوان تعايش بين المسلمين والمسيحيين، وانسجاما مع معنى التّعاش الذي انطلقنا منه فإننا نُلحِقُ قصائد ابن المنفّتل بقصائد ابن الحداد. فهي لا تعني التّعاش من حيث هو اعتراف بالآخر المخالف في الرأي والمبدأ. فقد مدح ابن المنفّتل ابن النغّالة متكسبا وهو أمر يُنقص من شعره. وعُدّ مدحه منقّصة على الرغم من أنه «من نشر الدرّ المفضل، وطبّق في بعض ما نظم المِفْصَل» (31) ولم يُحفظ من شعره إلا القليل. وحتى ابن بسام اعترف أنّه لم يَحْضُرْهُ في وقت تحرير الذّخيرة من شعر ابن المنفّتل إلا القليل. وتصرّف ابن بسام في ذلك القليل من الشّعْر الذي رواه، وعلّق عليه بما يدلّ على نُكْران النَّاس عليه مدحه لابن النغّالة، يقول : « فقبّح الله هذا مكسبا، وأبعد من مذهبه مذهبا، تعلّق به سببا، فما أدري من أيّ شؤن هذا المدلّ بذنبه المجترئ على ربّه، أعجب : ألتفضيل هذا اليهودي المأفون على الأنبياء والمرسلين، أم خلعه إليه الدنيا والدين ؟ حَسْرُهُ الله تحت لوائه، ولا أدخله الجَنّة إلا بفضل اعتنائه» (32).

يصف ابن المنفّتل ابن النغّالة بأنّه ممّن « فهم عن الزمان وخُلّقه، ورفل في جديده وخُلّقه، وعلم أنّه يستأصل ربّثما يواصل، ويقصم غبّ ما يقسم، لم يُبال بوقع سلاحه، ولا استعدّ لوقت استصلاحه».

(31) الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة : القسم الأول، المجلد الثاني ص : 754.

(32) المصدر نفسه، ق 1، م 2، ص 765

قِرْن الفضائل والقَواضِلْ      فشاى الأواخر والأوائِلْ  
سَقَطُوا بِرِقْعَةٍ فَضْلُهُ      كالشَّمْسِ فِي شَرْفِ المَناقِلْ  
هَذَا ابْنُ يوسُفِ الَّذِي      وَرِثَ المِفضائِلَ عَنِ قَواضِلْ  
شَرُفَ الزَمانُ بِمِثْلِهِ      شَرَفَ الأَسِنَّةِ بِالعَواِمِلْ  
مَنْ لَمْ يَلْذُ بِجِنايَةِ      لَمْ يَأْمَنِ الدَّهْرَ المُخاتِلْ  
مَتَلَّذَّ سِيفَ العُلا      والمُكْرَماتُ لَهُ حَمائِلْ  
قَصَّرتُ فِي وصْفِي لَهُ      وَلَوْ أَتَنِي سَحْبانُ وائِلْ  
ما قَلَّ ما يُرْجَى الكَما      لَمْ يَكُنْ أبُوهُ غَيْرُكاملْ  
سَكَنَ النَّدَى فِي كَفِّهِ      سَكَنَتِ الرَواجِبُ فِي الأَناِمِلْ  
وَجَرى الحِيا بِوَجْهِهِ      جَرى الفِرْدِ عَلَى المَناصِلِ<sup>(33)</sup>

وبنو النغالة عند ابن المنفلت (الطويل) :

بُدُورٌ وَلَكِنَّا أَمِنَّا سِرارَها      بُحُورٌ وَلَكِن لا نَرى دُونِها بِرا  
غُيُوثٌ إِذا ما المَحَلُّ شَبَّ بِبِلادَةٍ      كُهوْفٌ إِذا جَأتْ بَناءُ أرضِهِ كُبرى  
يَخالونَ مِنْ فَرطِ الحِيا أذِلَّةً      وَتَرْتِجُ أَحْشاءُ المُلُوكِ لَهُم دُغرا  
وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لِلنَّظْمِ والنَّثْرِ مُحسِنًا      فَإِنَّ نَداهِمَ عِلْمَ النِّظَمِ والنُّثرا

يقول ابن بسام : « وهذا القصيد اندرج له من الغلو فيه، مالا أثبتته ولا أرويه وأبعد الله المنفلت، فيما نظم فيه ووفصل، وقبحه وقبح ما أمل »<sup>(34)</sup>. ولو كان مدح ابن المنفلت لليهودي ابن النغالة أمرا عاديا ما عاب عليه ابن بسام ذلك.

ونجد ابن المنفلت في قصيدة أخرى يعلن تدينه باليهودية جهرا، ويعلن إجلاله لليهود ورئيسهم ابن النغالة، ويتتقى لهم أوصافا جليلة، فهم يفضلون الناس شرقا وغربا، وهم أشرف بانتساب موسى إليهم، فأتوا الناس جوداً وندى. وابن النغالة عنده يفضل حتى

(33) المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص : 762 - 763

(34) نفسه، ص : 764

نبي الله موسى، ففي حين كان هذا الأخير خائفا مترقباً استطاع ابن النغزالة أن يؤمن المخافة والفقر... ولعل لوثة التكسب بادية في كل هذه الأقوال وهي لا تقوم دليلاً على التعايش البتة.

يقول ابن المنفلت (الطويل) : (35)

ومن يك موسى منهم ثم صنوه  
وكم لهم في الناس من نعمة تُتَرَى  
أجامع شمل المجد وهو مُشْتَت  
فُضِّلَت كرام الناس شرقاً ومغرباً  
ولو فرقوا بين الضلالة والهدى  
ولاً سئلوا كَفَيْكَ كالركن زَلْفَةً  
وقد فزت بالدنيا ونلت بك المني  
أدين بدين السبب جهراً لديكم  
وقد كان موسى خائفاً مترقباً

فَقُلْ فِيهِمْ مَا شَتَّ لَنْ تَبْلُغَ الْعُشْرَا  
فكم لهم في الأرض من آية تُتَرَى  
ومطلق شخص الجود وهو من الأسرى  
كما فضل العقبان بالخطر القطر  
لَمَّا قَبَلُوا إِلَّا أَنَامَلِكَ الْعَشْرَا  
فِيْمَنَّاكَ لِلْيَمْنَى ويسراك لليسرى  
وأطمع أن ألقى بك الفوز في الأخرى  
وإن كنت في قومي أدين به سراً  
فقيراً وأمنت المخافة والفقر

أبو إسحاق الإلبيري واليهود

ولعل قارئ الأبيات السابقة يقف على ما بها من غلو، ولولا ما كان لبني النغزالة في غرناطة من حظوة ووزارة لما خَصَّهم ابن المنفلت بقصائده. ولقد جاءت أقواله مخالفة على الإطلاق لما أورده الفقيه أبو إسحاق الإلبيري فيهم. وبالتالي نكون أمام نقيضين، أحدهما يمدح اليهود ويُسبغ عليهم أوصافاً شريفة وجليلة، وآخر ينعي استحواذهم على زمام أمور الدولة ويفضح سياستهم. قال أبو إسحاق الإلبيري (المتقارب) (36) :

أَلَا قُلْ لَصَنَاجَةٍ أَجْمَعِينَ  
لَقَدْ زَلَّ سَيِّدُكُمْ زَلْفَةً  
تَخِيرُ كَاتِبَهُ كَافِرَا  
فَعَزَّ الْيَهُودُ بِهِ وَانْتَخَرُوا

بُدُورِ النُّدَى وَأَسَدِ الْعَرِينِ  
تَقَرُّ بِهَا أُعْيُنُ الشَّامِتِينَ  
وَلَوْشَاءَ كَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ  
وَتَاهُوا وَكَانُوا مِنَ الْأَرْذَلِينَ

(35) نفسه ، ص : 765

(36) ديوان أبي إسحاق الإلبيري الأندلسي، تحقيق وتقديم د. محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت

1976، ص : 96-100

ثُمَّ قَالَ مَوْجَهَا الْخَطَابُ لِباديس حاكم غرناطة :

ونالوا منهاهم وَحَارَظُوا الْمَدَى	فحانَ الْهَلَاكُ وما يَشْعُرُونَ
أَبَاديسُ أَنْتَ أَمْرُؤُ حَادِقٌ	تُصِيبُ بِظَنِّكَ نَفْسَ الْيَقِينِ
فَكَيْفَ اخْتَفَتْ عَنْكَ أَعْيَانُهُمْ	وفي الْأَرْضِ تُضْرَبُ مِنْهَا الْقُرُونُ
وَكَيْفَ تُجِبُ فِرَاحَ الزُّنَا	وَهُمْ بَغْضُوكَ إِلَى الْعَالَمِينَ
وَكَيْفَ يَتَمُّ لَكَ الْمُرْتَقَى	إِذَا كُنْتَ تَبْنِي وَهُمْ يَهْدِمُونَ
وَكَيْفَ اسْتَتَمْتَ إِلَى فَاسِقٍ	قَارَنْتَهُ وَهُوَ بَيْسَ الْقَرِينِ
وَقَدْ أُنْزِلَ اللَّهُ فِي وَحْيِهِ	يُحَذِرُ عَنْ صُحْبَةِ الْفَاسِقِينَ
فَلَا تُتَخِذْ مِنْهُمْ خَادِمًا	وَذَرُهُمْ إِلَى لَعْنَةِ اللَّاعِنِينَ
فَقَدْ ضَجَّتِ الْأَرْضُ مِنْ فِسْقِهِمْ	وَكَادَتْ تَمِيدُ بِنَا أَجْمَعِينَ
تَأْمُلُ بَعَيْنُكَ أَقْطَارَهَا	تَجِدُهُمْ كِلَابًا بِهَا خَاسِينَ

ثُمَّ قَالَ يَحْرُضُهُ عَلَى الْفَتَكِ بَابِنِ النَّغْرَالَةِ وَقَدْ شَبَّهَهُ بِالْقَرْدِ احْتِقَارًا :

وَرَحَّـمَ قِرْدَهُهُمْ دَارَهُ	وَأَجْرَى إِلَيْهَا نَمِيرَ الْعُيُونِ
فَصَارَتْ حَوَائِجِنَا عِنْدَهُ	وَنَحْنُ عَلَى بَابِهِ قَائِمُونَ
وَيَضْحَكُ مِنَّا وَمِنْ دِينِنَا	فَانَا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ
وَلَوْ قُلْتَ فِي مَالِهِ إِنَّهُ	كَمَالِكَ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ
فَبَادِرْ إِلَى ذَنْبِهِ قُرْبَةً	وَضَعْ بِهِ فَهُوَ كَبْشُ سَمِينِ
وَلَا تَرْفَعْ الضُّقْطَ عَنْ رَهْطِهِ	فَقَدْ كَتَرُوا كُلُّ عِلْقٍ ثَمِينِ
وَفَرَّقْ عِدَاهُمْ وَخِذْ مَا لَهُمْ	فَأَنْتَ أَحَقُّ بِمَا يَجْمَعُونَ
وَلَا تَحْسِبَنَّ قَتْلَهُمْ عَدْرَةً	بَلِ الْعَدْرُ فِي تَرْكِهِمْ يَعْثُونَ

تمكن بنو النغrale من أمر تسيير إمارة غرناطة على عهد بني زيري، وصارت لهم اليد الطولى في قيادة جيشها على يد السموءل ابن النغrale<sup>(37)</sup>. وصار هذا الأخير زعيما للطائفة اليهودية بأرض الأندلس بعد أن تسمى نغيدا سنة 418 / 1027. وبلغ نفوذ زعامته المغرب، وإفريقية، والأندلس، ومصر، وصقلية، وأكاديمية بابل ومدينة القدس، وساعد دارسي التوراة في

Angel Saenz-Badillos: judith Taragaron

(37) انظر قصائده الحربية عند

Borras Samuel hanagid: poemas desde el campo de batalla, Ed-Almendro, Cordoba 1988



كل تلك البلاد. وكان يرسل زيت الزيتون من معاصر بيته إلى القدس كل سنة (38). والناظر إلى قصائد المدح الموجّهة إليه من طرف شعراء عصره وخاصة الشاعر العبراني الأندلسي إسحاق بن خلفون، يقف على مكانة بن النغالة بين اليهود (39). وَخَلَفَهُ ابْنُهُ يَوْسُفُ بَعْدَ وَفَاتِهِ، لَكِنَّهُ فَشَلَ فِي اقْتِنَاءِ أَثَرِ أَبِيهِ فَقَتَلَ سَنَةَ 459 / 1066 م فِي ثَوْرَةِ أَهْلِ غِرْنَاطَةِ حَيْثُ « اسْتِطَالَ النَّاسُ عَلَى الْيَهُودِ، وَقَتَلَ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ نِيفَ عَلَى أَرْبَعَةِ آلَافٍ، مِلْحَمَةٌ مِنْ مَلَا حِمِ بْنِ إِسْرَائِيلَ، بَاوَأَ بِذُلِّهَا، وَطَالَ عَهْدُهُمْ بِثُلِّهَا » (40). وكانت قصيدة أبي إسحاق فتيل هذه الثورة، نظمها بعد أن راعه انقلاب حال اليهود بغرناطة، وخروجهم عن عهد الذمة، وفي استوزار باديس لابن النغالة، يقول المقرئ : « لما استوزر باديس صاحب غرناطة اليهودي الشهير بابن النغالة وأعضل داؤه المسلمين، قال زاهد ألبيرة غرناطة قصيدته المشهورة. وهي قصيدة طويلة، فشارت إذاك صنهاجة على اليهود وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وفيهم الوزير المذكور ... فأراح الله البلاد والعباد، ببركة هذا الشيخ الذي نُورَ الْحَقُّ، عَلَى كَلَامِهِ بَادٍ ... » (41)

ويقول ابن سعيد « وكان الإلبيري - يُنكر على ملكها كونه استوزر ابن نغالة اليهودي، وعلي أهل غرناطة انقيادهم له » (42).

وقصيدة أبي إسحاق واضحة، فهو يرى أنه لا يجوز للذمي التحكم في رقاب المسلمين، وإذا تجاوز الذمي العهد وجب قتله. فابن النغالة أصبح يسوس غرناطة عوض أميرها باديس، وبدأ يسخر من « الآخر » المسلم ومن دينه في أرض الإسلام (انظر البيت 38).

نرى أن قصيدة أبي إسحاق تقوم دليلا على عدم تحقق تعايش بالمعنى الذي حددناه سابقا. فقد بقيت الخلافات الجوهرية بين المسلمين وغيرهم متحتمة في علاقة بعضهم ببعض. ولم يتمكن أي منهم من التخلص من إرث الماضي. لقد ظلت أنفس أهل الذمة من اليهود تهفوا إلى

(38) انظر : Abraham Ibn Daud: the Book of tradition sefer haqabbalah, ed. G.D Cohen, London 1967, VII, p : 154 - 155

(39) انظر : Itzhaka Ibn Khalfun poems, sirim edition, introduction and comentary A. Mirsky, Jerusalem 1961, p : 126 - 127, 130- 131 - 133

H. Schirman: ha-sirah, haebrit bi-sefa rad W-be- Proyence, Jerusalem 1954, pp: 72-73 وانظر

(40) الذخيرة، القسم الأول، المجلد الثاني، ص : 769

(41) نفع الطيب، تحقيق، د. إحسان عباس. ج 4، ص : 322

(42) المغرب في حلى المغرب، لابن سعيد، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف، ج 2، ص : 133

المشرق<sup>(43)</sup> وتتأسى بترديد قصص التّوراة والتّوراتيّين، فابن النّغزالة يتقمّص شخصية زعماء التّوراة وأبطالها<sup>(44)</sup> ويهود اللاّوي يصف معاناة الحمامة رمز الشّعب اليهودي ويعرض لما لاقتته من أهوال علي يد أبناء إدوم (المسيحيّون) وأبناء ابن الخادمة (أي العرب).<sup>(45)</sup> وإبراهيم بن عزرا يصف الطوائف والجماعات اليهودية الأندلسية وما أصابها على يد الموحّدين<sup>(46)</sup>.

هكذا كانت علاقة أهل الملل الثّلاث في الأندلس علاقة صراع وصدام تمّ فيها انكفاء كلّ طائفة على ذاتها، ولعبت الأديان دوراً رئيسيّاً في توجيه العلاقة بالآخر، الشّيء الذي ترتّب عنه عدم تحقّق تعايش بالمعنى الذي حدّدناه من قبل. وتبقى أبيات ابن عربي المرسى التي صدرنا بها هذا العرض فريدة. إنّها نظرة صوفي ارتفع عن التقيّد بظاهر النّصوص المقدّسة ورحل قاطعاً المقامات والمراتب نحو دين توحدت فيه كلّ الأديان.

---

H.Schirman, op. cit p: 6-8

Ibid, I, 485 - 487, I, 489

(43) انظر رسالة مناحيم بن سروق إلى ملك الحزر

وانظر قصائد يهودا اللاّوي التي يتوقّ فيها إلى بلاد صهيون :

(44) انظر قصائده الحريّة

(45) H. Schirman, op. cit, I, 472-474

(46) انظر Diwan des Abraham Ibn Ezra mit seiner Allegorie Hai. ben Mekitz Ed. Egers. Berlin 1894. P: 68